الفصل الثانى

الدرس الكبير

(قال رجل للنبى ﷺ : ماشاء الله وشئت . قال أجعلتنى لله نداً . قل ماشاء الله وحده)

حديث شريف

إذا قيست عظمة الدعوة بأصالتها وطريقتها فى بلوغ المقاصد التى تتغياها فعظمة الدعوة الدينية تضعف أو تتضاعف قدر ما فى طريقتها من ورع فى التنفيذ وإخلاص الاتجاه إلى الله .

والإمام نبت تنتجه حاجات بلاده . وتتجلى إمامته فى مقدار ما يمثل روح أمته على طول أعصرها كما يجب أن يكون عليه . لاكما هى عليه ، وفى مبلغ توفيقه فى أن يجعل سيرته درساً من دروس دعوته .

وعظماء الأمم فى هذا أدنى درجة من الأئمة .

وحياة الإمام فى ذاتها إمام .

وروح الأمة الإسلامية الذى نحيا به هو تمسكها بالأمر الأول . وبقدر بعدها منه تقاس هزائمها ونكساتها .

وما هو إلا منهج السلف الصالح أعلنه الأئمة للناس ونفذوه .

وحيث يقوم منهج السلف الصالح لا يكون للبدع مقام . فالناس عندئذ يؤمنون بالله وحده لا شريك له . فتستقيم حياتهم وشخصياتهم . وتصح عباداتهم وتصلح معاملاتهم . ويستعملون العقل فيجتهدون ولا يقلدون . ويجاهدون العدو الخارجى ، فلا يقبلون الضيم ولا يستسلمون . ويقهرون العدو الداخلى من عيوب أنفسهم أو مجتمعهم .

ولما تتابع المصلحون على نهج ابن عبد الوهاب وتعاليمه كان ذلك نطقاً من الزمان ، مع التطور العلمى والحضارى والتكنولوجى ، بأن الإمام الذى خلد ذكر نجد وأعاد المجد لجزيرة العرب منذ القرن الثانى عشر كان يمثل روح أمته .

فالعربى أو العربى الأصل فارس التوحيد الأمثل . كأنما نتجه الله ونتج الكون العظيم صنوين أو توءمين . فالتسبيح ينصب انصباباً فى كيان العربى بفطرته ، إذ يتحرك بين عناصر الطبيعة الكبيرة

كالصحراء ومدنها وكالجبل والبحر ، أو الصغيرة كحبة الرمل أو قطرة الندى . يأسره الإحساس بوجود خالقه معه فى كل خطوة يخطوها وخطرة تخطر له . فيرعى همسات السماء سمعه ، وكأنها فى حوار معه : بالجلجلة أو الصرير أو القيظ أو الزمهرير ، حيث يقيم أو يرتحل ، من حيث تضن الدنيا بالماء والأمن إلى حيث تسخو .

والدنيا كلها فلاة واسعة الجنبات تحت أظلاف خيله أو أخفاف عيره . فالضيقة والقلة والمعاناة قوة له ، ومعونة على الرحلة . وفيها مفخرة لا مثلبة . والرسول عليه الصلاة والسلام يهديه فى مفازة الحياة بقوله (إن بين أيدينا عقبة كئوداً لا يجوزها إلا المخف) .

ومن الحركة والوحدة والتواصل بين السماء والصحراء كان الذكاء والسخاء والشجاعة وبعد الهمة ، ووجازة العبارة وامتداد الخيال والصدور عن الفطرة . فما أحراه بأن يكون جندىّ السماء .

والعربى منطيق بفطرته وزكانته . يعتبر ببرهان ربه إذ ينظر إلى إبله كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض التى سطحها الخالق ، لتعلن له فى كل دقة قلب أو طرفة عين أو نبضة عرق أن كل ذلك بقدر . يسيطر عليه الانسجام التام والتكامل الوثيق والتوافق الدقيق والتوازن الذى لا يتخلف . فتنطقه بأن خالق هذا الكون كله واحد ، وأن هذا الانسجام والتكامل والتوافق والتوازن تسبيح من الأشياء للخالق ، وأن الناس جميعاً يستوون تحت سلطانه . فلا أحد أقوى من صاحب الصحراء فى إيمانه وفى يقينه بنصر الله له .

وفى البادية طلاقة وفى العروبة وضوح . والإعراب - من أجل ذلك - إفصاح . واللسان العربى لذلك لا يحتمل الغموض .

وفى العرب شموخ وبصيرة يمنعان إلقاء الزمام بالاستسلام للبدوات . ويحضان على الاحتياط فى التبصر ، والاختبار قبل الاختيار ، مع الاستعانة بالفطرة والعقل لاستنباط المجهول عن طريق المعلوم الذى يلمس بالحواس الخمس . . يستوقفه ويكون فكره الأمر الظاهر له . الصافى صفاء السماء فوق إقليمه . ولهذا أوّنَ المستعربون ولم يتأول العرب .

من هذه الواقعية فى العروبة كانت الموضوعية فى الفكر والتزام الصدق ، ومن واقعية العربى وصدقه واحتياطه لمأتى كل أمر التزم العلم الإسلامى من عهد السلف الصالح لكل خبر إسناداً ، فى حين تخيل الآخرون وتصوروا أو تعالموا دون تأكيد ، فلم تثبت أخبارهم ولا علومهم ، وتكاثرت فيها الأساطير فارسية وإغريقية .

وخاطب الله البشر باللسان العربى ورسوله العربى ، واختص البلدة المباركة ببيته العتيق ، ليهب للعربية والعروبة وجزيرة العرب صدارة . يقول الشافعى فى الرسالة : (وأولى الناس بالفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى . ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير

لسانه فى حرف واحد . بل كل لسان يتبع لسانه . وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه . وقد بين الله ذلك فى غير آية من كتابه قال : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين) .

وقال . . وعرفنا مما خصنا به من مكانة فقال : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وكان مما عرف الله نبيه من إنعامه أن قال : (وإنه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه فى كتابه قال : (ولتنذر أم القرى ومن حولها) . وأم القرى مكة وهى بلده وبلد قومه . فجعلهم فى كتابه خاصة وأنذرهم مع المنذرين عامة) وقال : (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده) .

والعرب مادة الإسلام كما يقول عمر .

أو كما قال قتادة بن دعامة السدوسى (١١٧) : (إن المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم وضاق بها إبليس وجنوده فأبى الله إلا أن يمضيها ويظهرها ويفلجها وينصرها على من ناوأها . ومن قاتل بها نصر . إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التى يقطعها الراكب فى ليالٍ قلائل ويسير من الدهر فى فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها) .

ولا عجب أن تنزل الديانات فى العرب وأن يقل من يتنصرون منهم أو يتهودون . فالعربى دينه التوحيد لا يسيغ التشبيه أو التجسيد ، ولا يعبد المال ، ولا يخضع لسيطرة .

وليس عجباً أن يعيش المسلمون بعد الأجيال الثلاثة الأولى فى مستوى أدنى من الإسلام ذاته . إذ ضعف العرب وتقهقرت العروبة وتكاثر الشعوبيون .

وفى حين لم يدخل العرب بلداً إلا جنوداً لله لا يغزون أو يستعمرون . وكثيراً ما ينسحبون تاركين أهل البلاد المفتوحة بعد إذ يسلمون ، جاء الفرس والترك والتتار إلى بلاد العرب غُزَّى جبارين .

فلا تسأل : لماذا أنزلت الديانات فى أرض العرب ولا كيف كان التوحيد سليقة تسبق دعوة ابن عبد الوهاب وجيوش ابن سعود إلى أرجاء جزيرة العرب . فإنما عملت فى خدمة الدعوة الفطرة العربية واللسان العربى والاتجاه إلى البيت العتيق صباح مساء .

* * *

وبعد : فما الذى يدلى به الشيخ فى مجالسه أو فى كتبه ؟ إن رسالات للعلماء وإن مؤلفاتٍ تعد بالعشرات ، وهو قد جلس للتدريس ستين عاماً أو تزيد وأوفد الوفود ، وأوصى الكتائب فى الزحوف ، وعلم الأمراء والعلماء والجمهور والمتفقهة ؟ إن الجواب يمكن تحصيله فى كليات هى :

١ - الدعوة للتوحيد وتحرير الذات الإنسانية من الاستعباد للبشر فلا إله إلا الله وحده .

٢ - تحرير الفكر الإنسانى من مذلة التقليد واتباع السابقين إلا أن يكون عملاً تتبعه ونحن

نفهمه عمله الرسول وصحبه فذلك اتباع لا تقليد .

٣ – تحرير الفكر الإسلامى مما يدخله عليه المؤولون من آراء رأوها أو أوهام توهموها أو أكاذيب روج لها أعداء الدين .

٤ – الدعوة الصادقة للإسلام بالجهاد فى سبيل الله أمراً بالمعروف أو ائتماراً به ونهياً عن المنكر أو انتهاء عنه .

والشيخ فى تطبيق هذه المبادئ الأربعة وتعليمها ينهج نهج الرسول عليه الصلاة والسلام وهو التعليم ، وتلقيح ألباب الرجال وتثقيفهم وتطهير أنفسهم . ثم الجهاد للدفاع عن جوهر ما تعلموه

والشيخ يحيى سنة درست ، ويصوب علماء تواتروا على القعود فى صحون المساجد دون عمل ، أو فى قاعات التدريس قانعين بالشروح والتعليقات ومقلدين للسابقين .

ولئن كان من العلماء من رابط مع أصحاب الرباط أوكان فى حاشية الملوك فى الحروب ، إن الشيخ صنع مالم يصنعه هؤلاء وما لم يصنعه شيخه ابن تيمية ذاته . إذ تعاهد على الحرب مع الأمير ، وخاض معاركها ، ونصر الله المسلمين فيها به . وبدأت به مرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام .

وبهذه الخصيصة ، وما أثرت فى تاريخ الإسلام ، وضع ابن عبد الوهاب اسمه فى جوار هذا الثبت الحافل بأسماء أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وابن تيمية .

المدخل إلى التوحيد

أدرك الشيخ ضرورة أن يعاد بنيان المجتمع على أساس الشريعة ، لأن التوحيد لن يبلغ مبلغه إلا أن يحصن إيمان الأفراد . ويهيئ أنفسهم بأوليات العقيدة ليعملوا بها ، فأتبع كتابه (التوحيد الذى هو حق المولى على العبيد) كتباً شتى فى أبوابها مجتمعة فى غرضها ، وهو إعداد الناس ليدركوا معانى الكتاب الأول ويلتزموها .

وهذا ظاهر من استعراض بعض الكتب مثل :

مسائل الجاهلية وشرح سورة الفاتحة وتفسيراته للآيات المتفرقة والسور القصار وكتاب الكبائر ونصيحة المسلمين بأحاديث سيد المرسلين والأصول الثلاثة وأدلتها وأصول الإيمان والكلمات النافعة والمسائل المائة وفضل الإسلام ومجموعة الرسائل . . إلخ . . إلخ .

ولم يكن الشيخ ليوفى على الغاية إلا بما بلغه من شمول فكر يتجلى فى أمرين :

١ الاقتدار فى فقه العبادات والمعاملات ، فالفقه أشرف العلوم الإسلامية ، لأنه أداة

العدل ، وضابط العمل فى الصحة والفساد .

ومن شرف الفقه يشرف الفقهاء العاملون به . ويخزى العلماء الذين لا يعملون .

٢ - الإحاطة الدقيقة بسيرة صاحب الرسالة ومالقيه فى الدعوة إن سلماً وإن حرباً . والسيرة صميم المنهج السلفى ؛ لأنها تطبيق على يد صاحب الشريعة وصحبه . وتطبيق السلف حجة .

وعلى ذلك كان من أهم ماكتبه الشيخ وعلمه بعد كتاب التوحيد مختصران فى الفقه والسيرة : الأول منهما يكفى لوضع الشيخ فى موضعه بين عظماء الفقهاء إذ هو مختصر كبير لكتابين كبيرين فى المذهب .

والآخر يكفى كل مسلم ليدرك صميم الرسالة وجوهرها ويطابق القول والعمل وجلال الأسوة من عمل النبى وصحبه . والسيرة مصدر للفقه .

وفى الاختصار مشقة ودقة . وبخاصة فى كتب الفقه لما يجب لها من جمع الفكر العظيم فى حيز ضئيل ، ثم بسطه للقراء ، مع إسقاط التفاصيل وإصفاء الفهم الذاتى لمن يصنع ذلك ، ومن ذلك يعتبر المزنى بمختصره أفقه أصحاب الشافعى .

وليست سيرة النبى سيرة واحد من العظماء ؛ وإنما هى التطبيق الحى للرسالة كما أنزلها الله وأراد تطبيقها ، فالاختصار فيها درجة اقتدار وإحاطة تضؤل دونها شروح المحشين والمعلقين .

* * *

فى هذه الكتب جميعاً يقدم الشيخ الدليل القرآنى والحديث النبوى وعمل الصحابة والتابعين وإليك أمثالاً :

فى **كتاب الكبائر** اهتمام منحوظ بنزاهة الراعى وطاعة الرعية أى بنظام الدولة - وفى ذلك يحدث حديث ابن عمر : (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أوكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) وحديث ابن عباس : (من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإن من خرج من السلطان قيد شبر مات ميتة جاهلية) وحديث عرفجة : (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه) .

وحديث حذيفة : (ستكون بعدى أئمة لا يهتدون بهدى ، ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس ! قلت يا رسول الله : كيف أصنع إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك أو أخذ مالك) .

وحديث أبى هريرة : (سأل أعرابى النبى ﷺ متى الساعة ؟ قال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : كيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة) .

وحديث أبي بصير : (لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت خيراً فيها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك) .

وفى هذا الباب الأساسى لصلاح الدولة والأمة : ينص الشيخ أسانيد الرحمة فيروى دعاء الرسول : (اللهم من شق على أمتى شيئاً فشق عليهم واشقق عليه . ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق عليه) وحديث أبي مريم الأزدى قال معاوية : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله من حاجته وخلته وفقره يوم القيامة) .

والشيخ إمام يعطى كل ذى حق حقه ، وحق الأمير الطاعة ، وحق الأمة العمل فى خدمتها فهى تطيعه ما أطاع فيها الله .

– **وفى كتاب فصل الإسلام** يتصدى لحاجات الجماعة فيبين خطر البدع على الفرد والجماعة : فى الصحيح أن النبى ﷺ قال فى الخوارج (متى لقيتموهم فاقتلوهم) .

ويذكر الشيخ حجة قاطعة (ذكر للنبى : أن بعض الصحابة قال : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال ثان : فأما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال ثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء ، قال رابع : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، فقال : لكننى أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم فمن رغب عن سنتى فليس منى) . ويضيف الشيخ « فتأمل إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل فى العبادة وقيل فيه هذا الكلام الغليظ وسمى فعله رغوباً عن السنة فكيف بغير هذا من البدع ؟ وما ظنك بغير الصحابة ؟

ثم ينتقل الشيخ من الاستشهاد بالتبتل ليتكلم عن التبذل لتتجلى الحجة فى الشىء وفى نقيضه . فيروى عن سعيد أخى الحسين أنه قال : (إنكم اليوم على بينة من ربكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون فى سبيل الله ولم يظهر فيكم السكران سكر الجهل وسكر حب العيش . وستحولون عن ذلك ، فالمتمسك يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين) ذلك معنى قوله ﷺ : (طوبى للغرباء الذين يتمسكون بالكتاب حين يُترك ، ويعملون بالسنة حين تُطفأ) . وقوله ﷺ (. . . إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة خلفائى الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) .

والشيخ يعرف البدعة تعريفاً نبوياً لا يرق إليه اشتباه فيروى حديث حذيفة : (كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبّدوها ، فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من قبلكم) .

– **وفى كتاب أصول الإيمان** يروى عن ابن عمر قول النبى ﷺ : (كل شىء بقدر حتى العجز والكيس) .

وعن ابن القيم قوله : فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه ، بل يوجب الجد والاجتهاد . ولذلك لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنت أشد اجتهاداً منى الآن ، وقال أبو عثمان النهدى لسلمان : لأنا بأول الأمر أشد فرحاً منى بآخره .

ويروى عن أبى الدرداء : (ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته ؛ فإن الله لم يكن لينسى شيئاً . «وما كان ربك نسياً») .

وعن على : (الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره . إنه لا خير فى عبادة لا علم فيها . ولا علم لا فهم فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها) .

وعن الحسن إذ سمع قوماً يتجادلون : (هؤلاء قوم ملّوا العبادة وخف عليهم القول ، وقل ورعهم ، فتكلموا) .

* * *

وفى الأصول الثلاثة وأدلتها يقول بن تفصيل طويل : إن على كل مسلم أن يتعلم أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً وأن الله لا يرضى أن يُشْرَكَ معه فى عبادته أحدٌ . وأن من أطاع الرسول ووحد الله لا يجوز له موالاة من حادّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب .

ويوالى الشيخ شرح القيم التى لا معدى عنها لقيام مجتمع سليم فينبه على تضامن الجماعة والبر بذوى القربى ، وعلى أن إحسان العمل بحاجة إلى توفيق الله ورضاه وإن أحسن الإنسان كل الإحسان .

يروى عن عمر وكأنه يرى مصير قاضيه فى تحكيم على ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين : (عن أبى بردة بن أبى موسى قال : قال لى عبد الله بن عمر : هل تدرى ما قال أبى لأبيك ؟ قلت لا ؛ قال : فإن أبى قال لأبيك : يا أبا موسى ، هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه وجهادنا معه يرد لنا ، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس ؟ فقال أبوك لأبى : لا ، والله ، فقد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً وأسلم على أيدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك ، ولكنى أنا ، والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن يرد ذلك لنا . وأن كل عمل عملناه ، بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس . فقلت : إن أباك والله كان خيراً من أبى) .

ويروى قول ثوبان عن النبى عليه الصلاة والسلام وكأنما يقصد بها عصرنا الحالى : «توشك

الأمم أن تداعى إليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم كغثاء السيل . ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » قال قائل : يارسول الله ما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت »

– **ويجمع فى (المسائل المائة)** رؤوس مسائل لم يعد للإسهاب فيها فيما بعد . وكلها تدور حول الأمور التى أصبح الله بها بال المسلمين ، ومدارها التوحيد والحرية وطهارة النفس واعتبار الحق هو القيمة الحقيقية .

ويظهر فحوى هذا الكتاب من فاتحته . فالمسألة الأولى من المسائل المائة هى أنهم كانوا فى الجاهلية (يعبدون بإشراك الصالحين فى دعاء الله تعالى وعبادته ، ويرون ذلك من تعظيم الصالحين الذى يحبه الله . ويريدون بذلك شفاعتهم عند الله لظنهم أنهم يحبون ذلك كما قال تعالى فى سورة الزمر ٣٩ : ٣ : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون) قال تعالى فى سورة يونس / ١٨ : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وهذه أعظم مسألة خالفهم فيها رسول الله فأتى بالإخلاص . . . وهذه المسألة هى الدين كله . ولأجلها يفرق الناس بين مسلم وكافر . وعندها وقعت العداوة . ولأجلها شرع الجهاد . وكما قال تعالى فى البقرة / ١٩٣ : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) .

التوحيد

ألف الشيخ كتاب (التوحيد الذى هو حق المولى على العبيد) فى ثلاثيناته وهو فى طليعة مؤلفاته إن لم يكن أسبقها كافة[1]

---

(١) عنى المؤلفون فى سيرة ابن عبد الوهاب ودعوته بهذا الكتاب ومن أولئك من الشيخ أنفسهم . وهم فيه أكثر من شرح . ولعل أكثرها تداولا كتاب فتح المجيد فى شرح كتاب التوحيد . ألفه الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ (١٢٥٦) مضيفا فيه إلى تأليف سابق قام به حفيد آخر للشيخ هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب سماه (تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد) . ثم اختصره فى كتاب آخر (قرة عيون الموحدين) .

وبقى عبد الرحمن إلى مصر حيث درس بالأزهر . ثم عاد إلى نجد سنة ١٢٤١ يقول عنه ابن بشر فى كتاب (عنوان المجد) : « يروى حوادث تلك السنة : (وفيها أقبل من مصر العالم النحرير والبحر الزاخر الغزير مفيد طالبين المخصوص بجناب رب العالمين جامع أنواع العلوم الشرعية) .

ولئن ساغ تقديم فحوى الكتاب فى كلمات – فهى أن الشيخ يرى أن التوحيد ليس مجرد توحيد الربوبية : إن الله وحده خلق العالم ، بل الإقرار بأن الله هو المستحق وحده للعبادة مع الالتزام بتنفيذ هذا الإقرار.. وذلك أن المشركين العرب كانوا يقرون بأن الله وحده خالق كل شيء ، وكانوا مع هذا مشركين بقوله تعالى فى سورة يوسف/١٠٦ : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركين) . ويقول فى سورة البقرة/١٦٥ : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) .

فكلمة لا إله إلا الله لا تنفع قائلاً إلا أن يعرف مدلولها نفياً وإثباتاً . ومن قالها على غير علم واعتقاد وعمى فهو جاهل ، ومن أشرك بالله عن جهل وجب تعليمه . فإن أصر لزم حربه .

ويبين الشيخ حقيقة التوحيد كما فهمها المسلمون من السلف الصالح وضروب الشرك التى سقط فيها بعض المسلمين عندما تدهوروا فى القرون اللاحقة ، واعتقدوا اعتقادات فاسدة ، وأقفلوا باب الاجتهاد ، وقعدوا عن الجهاد .

والمعتقدات الفاسدة هى التى أمكنت أعداء المسلمين من المسلمين بجهلهم خصائص الدين ، وإطفائهم شعلة العقل وتقليد قليل من الرجال أزمة تفكيرهم ، والرضا بمجرد الحياة على وجه الأرض ، لا بالحياة التى ترفع المسلم درجات .

يستفتح الشيخ بالآى من الكتاب الكريم مثل قوله تعالى فى سورة الذّاريات/٥٦ : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وقوله فى سورة الإسراء/٢٣ : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وقوله فى سورة النساء/٣٦ : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وقوله فى سورة الأنعام/١٥١ : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) : أى يبدأ بتخصيص الخلق بعبادة الله وباجتناب عبادة الشيطان وعدم إشراك أحد مع الله .

ثم يورد قول ابن مسعود : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى : (أتل ما حرم ربكم عليكم – إلى قوله وأن هذا صراطى مستقيما) . وحديث معاذ بن جبل : (كنت رديف النبى ﷺ على حمار فقال لى : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، قلت : يارسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا تبشرهم فيتكلوا) .

وإيراد الحديثين بعد الآيات شرح للكتاب بالسنة وهو منهج الإمام أحمد تبعه فيه ابن تيمية فابن عبد الوهاب ومن أخذ أخذهم .

وعبادة الخالق لا تقبل عبادة المخلوقات ، وتستلزم الإذعان التام بإسلام الوجه لله تعالى بإخلاص العبادة المنافى للشرك والنفاق . ولا يصدق ذلك ممن خالف قلبه لسانه فهو عاص منافق ، وإنما

الصادق هو المحب فى الله والمبغض فى الله ، الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر . قال تعالى فى سورة التوبة/ ٧١ : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

والرسول يقول : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) .

وتحقيق التوحيد تصفيته من شوائب الشرك فى العبادة بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات أو الغائبين أو الطواغيت أو الجن أوطلب الخير من غير الله ، فمن دعا غائباً وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة إليه أو رهبة منه سواء سأله أو لم يسأله - فهذا هو الشرك ؛ ولهذا حرم الله اتخاذ الشفعاء . فمن اتجه إلى الشفيع فقد أعرض عن الله.والله تعالى يقول فى سورة البقرة/ ١٦٥ : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) فمن يتخذ ندا تساوى محبته محبة الله فهو مشرك ، وليس شرك المشركين بعبادة الأصنام وحدها ، وإنما بدعاء الغائبين والموتى لجلب نفع أو دفع ضرر ، فهذا من الشرك الأكبر .

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) الأعراف/ ١٨٠ فالتوسل إلى الله يكون بأسمائه وصفاته كقوله (اللهم إنى أسألك أنت الله لا إله إلا أنت . . .) .

والذين يتخذون الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله يتبعونهم فى تحريم الحلال وتحليل الحرام ويحبونهم كأنهم أنداد الله - يشركون .

والذين يغلون فى قبور الصالحين ويبنون عليها المساجد والمشاهد يشركون .

ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحو ذلك لرفع البلاء أو دفعه ، فالله يقول فى سورة الزمر/ ٣٨ : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره؟) والرسول يقول : (من تعلق تميمة فلا أتم له الله ومن تعلق ودعة فلا ودع له الله) ويروى ابن مسعود عن الرسول : (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) (١) وإبراهيم النخعى يقول : إنهم كانوا يكرهون التمائم

(١) إذا كان فى الرقية ذكر الله تعالى فإنه يستحب والرقية حينئذ دعاء ورجاء لله تعالى . وقد كانت رق أهل الجاهلية ممزوجة بالسحر .

ويقول النبى ﷺ : (ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية) .

أما الحزن من غير جزع والبكاء بغير عويل ففيه قول عمر إذ سمع النسوة يبكين خالد بن الوليد وأراد بعض منعهن فقال : (دعهن يبكين على أبى سفيان ما لم يكن نقع ولقلقة) . والنقع التراب على الرأس واللقلقة الصوت .

ويقول تعالى فى سورة الإسراء ٥٧ : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً) . فالله تعالى ينكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم لأن دعاء الغائبين والموتى لجلب منفعة أو دفع مضرة شرك أكبر لا يغفره الله .

ومن الشرك ما يعطل العقل ويدفع إلى التقليد ويمنع الاجتهاد : قال تعالى فى سورة التوبة ٣١ : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) . =

. . . . . .

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عدي بن حاتم الطائي فقال عدي : (يا رسول الله لسنا نعبدهم قال : أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ قال بلى : قال النبي ﷺ : فتلك عبادتهم) .

والرسول يقول . (احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ما يكتبه الله عليك لم يضروك .) .

ويقول : (إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله . فإن رزق الله لا يجره حرص ولا يرده كراهية كاره) .

وأما كونهم يعتقدون التأثير فيهم في قضاء حاجاتهم كما كانت تفعله جاهلية العرب ويفعله الصوفية الجهال وعبادهم ويستجدونهم . فهذا من المنكرات وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات فحاشى الله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة فهذا ظن أهل الأوثان !

وقد كان علي وعمر من أصحاب الكرامة ، وكلاهما عاقب على الشرك أشد العقوبة : الأول حرق الأخاديد لمن غلا فيه . والآخر بعد المحدث لم يدع لنفسه كرامة ، بل كان من أكثر المسلمين عملاً وتواضعاً لله .

وأما ما قاله المتصوفة من أن منهم أبدالاً ونقباء وأوتاداً وجباء وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة والقطب هو المغوث للدس . فهذا من موضوعات إفكهم ، كما ذكره القاضي المحدث في سراج المريدين وابن الجوزي وابن تيمية . والله يقول في سورة الأعراف ١٨٨ : (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله) والرسول حين أنزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) يقول : (يا معشر قريش أو كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب . لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية (عمة رسول الله ﷺ) لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً !) .

ويقول ابن القيم : (ومن أنواع الشرك طلب الحاجات من الموتى والاستعانة بهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله . ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً) .

والله يقول : (فصل لربك وانحر) : أي لله وحده .

وقال رسول الله ﷺ : (لعن الله من ذبح لغير الله) .

فهذه النذور من عباد القبور تقرباً إلى أصحابها ليقضوا الحاجات كلها شرك لا ريب فيه : يقول الله تعالى الأنعام ١٣٦ (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . ويقول ابن تيمية : كالنذر للأصنام والشمس والقبور . . والنذور لزيارة القبور معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء بها والنذر لسدنة القبور وتجاوزه للقبور معصية لاشك فيها . من قصد النذر تعظيم القبة أو المشهد أو الزاوية أو من دفن فيها فالنذر باطل لا يعتقد بالإجماع .

ومن الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره :

يقول ابن تيمية : فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام في هذه الأزمان قد يقرق أيضاً من الإسلام لأسباب منها : الغلو في بعض المشايخ . مثل الغلو في علي بن أبي طالب . بل الغلو في المسيح : فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول : يا سيدي فلان ، انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أنا في حسبك ونحو هذه الألفاظ . فكل هذا شرك وضلال .

ويقول : من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعاً .

وهذا الذي يقوله الإمام الخليل يقوله الأحناف . في الفتاوى البزازية : من قال لأرواح المشايخ حاضروا فقد كفر . وقال الشيخ عبد الحق : أما قولهم للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم فورده قول نعوذ في سورة النمل ٦٢ ، ١٦٤ ، ومع النمل) . وسورة الأعراف ٥٤ (ألا له الخلق والأمر) إلخ . . . إلخ .

كلها من القرآن وغير القرآن . وعلى ذلك كان كل تلاميذ عبد الله بن مسعود . وعن عتبة بن عامر أنه جاء فى ركب عشرة إلى رسول الله ﷺ ، فبايع تسعة ، وأمسك عن رجل منهم ، فقالوا : ما شأنه ؟ قال : إن فى عضده تميمة فقطع الرجل التميمة فبايعه رسول الله ثم قال : (من علق تميمة فقد أشرك) .

وعن ابن مسعود أنه دخل على امرأته وفى عنقها شىء معقود ، فجذبه فقطعه ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» قالوا يا أبا عبد الرحمن : هذه الرقى والتمائم قد عرفناها فما التولة ؟ قال شىء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن .

وقد تعلم المسلمون من كتابهم وسنة رسولهم أن يطلبوا المسببات من أسبابها ويعرضوا عما يقوله بعضٌ من أسباب خفية يزعمونها ويروجها سدنة المعابد والمتاجرون بالأوهام والله يقول . (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) – النمل ٦٥ . ويقول (ولوكنتم أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) الأعراف ١٨٨ . ويقول : (أن لوكانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) سبأ – ١٤ والرسول يقول : (من أتى عرافاً فسأله عن شىء فصدقه بما قال لم تقبل له صلاة أربعين يوماً) ويقول : (من أتى كاهنا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) .

والرسول يقول فى السحر والطيرة : (ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له) .

وفى النفث فى العقد يقول : (من نفث فى عقدة فقد سحر ومن سحر فقد أشرك) .

وسئل عليه السلام عن النشرة – حل السحر عن المسحور – فقال : (هى من عمل الشيطان) والسحر واحد من الموبقات وحد الساحر ضربه بالسيف ، فالسحر شرك ، ومن أتى عرافاً فصدقه فقد أتى عملاً من أعمال الشرك .

والنشرة مثل السحر فإن كانت بسحر فهى مثله . وإن كانت بدعاء أو بدواء ونحو ذلك فهى حلال . ولما ذكرت الطيرة – وهى التشاؤم بالمرئى أو المسموع – عند رسول الله قال : أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : (اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

ولأحمد من حديث ابن عمرو : (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك ، قالوا : فما كفارة

– ويقول الرسول : (أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) ، فسئل عنه فقال : الرياء .

ويقول : (الشرك الخفى : يقوم الرجل فيصلى فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل) .

فخافة الآخرين ومراءاتهم شرك صغير ، وهو لاشك كثير الحدوث ، فهو يضعف الإيمان فى الأمة ، وذلك كان أخوف ما خافه عليها .

ذلك ؟ قال : أن يقول (اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك) .

والنائحة ترتكب إحدى الكبائر. وفى الحديث شدة الوعيد عليها قال عليه السلام : (النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) .

ومن الشرك التبرك بشجرة أو نحوها ! قال أبو واقد الليثى : خرجنا مع رسول الله إلى حنين ، ونحن حدثاء ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا ، يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال : (الله أكبر ، إنها السنن . قلتم ، والذى نفسى بيده ، كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون [1]) ، لتركبن سنن من كان قبلكم)

ومن الشرك النذر لغير الله : كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور . والعبادة إذا صرفت لغير الله صارت شركاً والرسول يقول : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه) .

ومن الشرك الاستغاثة بغير الله أودعاء غير الله . وهو يقول فى سورة يونس/١٠٦ : (ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين) .

روى الطبرانى (٣٦٠) أنه كان فى زمن رسول الله منافق يؤذى المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : (إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله) . وما هذا إلا لحماية التوحيد وسد ذريعة الشرك والتأدب مع الله . والله تعالى يقول لنبيه آل عمران/١٢٨ (ليس لك من الأمر شىء) . ولما نزلت على رسول الله (وأنذر عشيرتك الأقربين) . قام فقال : (يامعشر قريش أوكلمة نحوها- اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً . . .) .

والشفاعة نوعان :

نوع منفى فى القرآن : يقول الله تعالى فى سورة يونس/١٨ : (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) . وهذا شرك بقوله تعالى فى سورة يونس / ١٨ : (سبحانه وتعالى عما يشركون) .

والنوع الآخر : أثبته القرآن ، وقيده الله تعالى بأمرين : ١ - إذنه للشافع قال تعالى فى سورة البقرة / ٢٥٥ : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) ، ٢ - ورضاه عمن أذن للشافع أن يشفع فيه قال تعالى فى سورة الأنبياء / ٢٨ : (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

الغلو فى الصالحين

ويستطرد الكتاب . فثمة باب تدور حوله أبواب . هو (ما جاء أن سبب كفر بنى آدم وتركهم دينهم هو الغلو فى الصالحين) . وفى الصحيح عن ابن عباس فى قوله تعالى فى سورة نوح / ٢٣ : (وقالوا لا تذرنَّ آلهتكم ولا تذرنَّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا) . قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ؛ ففعلوا . ولم تعبد . حتى إذا هلك أولئك ونسى العلم حقيقة أمرهم عبدت . أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ؛ وأما سواع فكانت لهذيل . وأمّا يغوث فكانت لمراد . ثم لبنى القطيف ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لآل ذى الكلاع[1] .

وينتقل من عبادة الأصنام إلى عبادة القبور والنبى ﷺ يحذر منها بقوله : (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) . ويقول : (ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك) .

وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً .

ومالك يروى فى الموطأ عن الرسول : (اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ، وعن ابن عباس قال : (لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور

---

(١) ويقول الشيخ فى كتاب مختصر السيرة :

(ومن أقدم أصنامهم منأة وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة ، بعث رسول الله ﷺ علياً رضى الله عنه فهدمها عام الفتح . ثم اتخذوا اللات فى الطائف وقيل : إن أصل ذلك رجل يلت السويق للحاج . فمات ، فعكفوا على قبره وكانت صخرة مربعة مدنتها ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بيتاً ، فكان جميع العرب يعظمونها ، وكان العرب تسمى ، زيد اللات وتيم اللات ، وهى فى موضع منارة مسجد الطائف . فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها ، وأحرقها بالنار ، ثم اتخذوا العزى وهى أحدث من اللات . وكانت بوادى نخلة فوق ذات عرق . وبنوا عليها بيتاً ، وكانوا يسمعون منها الصوت ، وكانت قريش تعظمها . فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فهدمها .

هبل : وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان ، وكانوا إذا اختصموا أو أرادوا سفراً أتوه فاستقسموا بالقدح عنده .

وكان لهم أساف ونائلة . أصلهما أن أسافاً رجل من جرهم ونائلة امرأة منهم . فدخلا البيت ، ففجرا فيه . فمسخهما الله حجرين . فأخرجوهما ، فوضعوهما ليتعظ بهما الناس . فلما طال الأمد وعبدت الأصنام عُبدا . وذو الخلصة وكان لخثعم وبجيلة بين مكة والمدينة ، فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبد الله البجلى : (ألا تريحنى من ذى الخلصة) فسار إليه فقاتلته همدان فقهرهم وهدمه . وكان لأهل كل واد بمكة صنم إذا أراد أحدهم سفراً كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به . وصنم عمرو أنس ، وكان لحولان وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلثمائة وستين صنماً ، فجعل يطعن فى وجوهها وعيونها ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) الاسراء ٨١ . وهى تتساقط على رءوسها . ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وأحرقت .

والمتخذين عليها المساجد والسرج) . وعن علي زين العابدين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي فيدخلها فيدعو فنهاه وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : (لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ وإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم [١]) .

وهذا يدل على أن قصد القبر للسلام ممن يدخل ليصلي منهي عنه . وأنّ قصده للدعاء منهي عنه .

وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك [٢] . وكان الصحابة – والتابعون يأتون مسجد النبي فيصلون فإذا قضوا الصلاة قعدوا أوخرجوا . ولم يكونوا يأتون القبر للسلام ، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد هي السنة . وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم عنه في قوله (لا تتخذوا قبري عيدا وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني) .

والحسن بن زين العابدين يقول لسهيل بن أبي سهيل : ماذا رأيت عند القبر؟ فيجيبه : سلمت على النبي ﷺ . فيقول له : إذا دخلت المسجد فسلم . إن رسول الله ﷺ قال : لا تتخذوا قبري عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم . لُعن اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) .

* * *

وفي كتاب كشف الشبهات يواصل الشيخ شرحه الآي واحدة بعد أخرى . يقول : (اقرأ قوله

---

(١) العيد يجمع معان : منها الاجتماع المعتاد ، واليوم العائد كيوم الفطر ويوم الجمعة ، ومنها الأعمال التي تتبع فيه (الاحتفالات والموالد) .

(٢) يقول مالك : (لا أرى لمن يدخل مسجد الرسول أن يقف عند قبر الرسول ﷺ ولكن يسلم ويمضي) .

ويقول القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ، فأعلوا حيطان تربته . وسدوا المداخل إليها . وجعلوها محدقة بقبره ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره .

ونص أحمد أن يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره . ويقول الشافعي : أكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة على من بعده من الناس .

وذكر الزيلعي أنه يكره أن يبنى على القبر . وذكر قاضي خان (وهو حق) أنه لا يبنى على القبور ولا يجصص كراهة تحريم . وابن حجر يذكر أن بناء القباب على القبور من الكبائر .

ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر ، وأوصى الأسود بن يزيد : (لا تجعلوا على قبري آجراً) ، وأوصى أبو هريرة عند موته لا يضربوا على قبره فسطاطاً ، وكره الإمام أحمد أن يُضرب على القبر فسطاط .

وبعد أن منع الرسول زيارة القبور أباحها للاعتبار .

تعالى فى سورة يونس/ ٣١ : «قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون) . وبقوله تعالى فى سورة «المؤمنون» / ٨٤-٨٩ : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون) . وغير ذلك من الآيات فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا وعرفت أن التوحيد الذى جحدوه هو توحيد العبادة الذى يسميه المشركون فى زماننا الاعتقاد ، فمنهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات أو نبياً مثل عيسى ، وعرفت أن رسول الله قاتلهم على هذا الشرك ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى فى الجن/ ١٨ : (وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا) . وكما قال تعالى فى الرعد/١٤ : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء) . . . . وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم فى الإسلام- عرفت حقيقة التوحيد الذى دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون .

وهذا التوحيد هو معنى قولك لا إله إلا الله ، فإن الإله عندهم هو الذى يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرةً أو قبراً أو جنياً ، وإنما يعنون بالإله ما يعنى المشركون فى زماننا من كلمة السيد[1] فأتاهم النبى ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد . . . معناها لا مجرد لفظها) .

الفتاوى :

فى فتاوى الشيخ ورسائله توضيح لفكره ، وكذلك فتاوى أبنائه بعده وكانوا حقاً علماء ، وإليك أمثالاً :

١ رسالة جوابية من محمد بن عبد الوهاب .

يقول فى الشرك : (. . . قيل : إن أول آية نزلت قوله سبحانه وتعالى بعد اقرأ (يأيها المدثّر قم فأنذر) قف عندها ثم قف ثم قف تر العجب العجيب . وتتبين لك ما أضاع الناس من الأصول . وكذلك قوله تعالى فى النحل /٣٦ : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) الآية وكذلك قوله تعالى فى الجاثية /٢٣ : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) . . . ولكن أظنك وكثيراً من أهل هذا

(١) قول أهل زماننا : (سيدى فلان) .

الزمان ما تعرف من الآلهة المعبودة إلاّ هبل ويغوث ويعوق ونسراً واللات والعزى ومناة . فمن جاد فهمه عرف أن المقامات المعبودة اليوم من البشر والشجر والحجر ونحوها مثل شمسان وإدريس وأبو حديدة ونحوهم ، منها . هذا ما أثمر به الجهل والغفلة)

ويقول فى الاجتهاد : (. . . وهذه المسائل وأشباهها مما يقع الخلاف فيه بين السلف والخلف من غير نكير من بعضهم على بعض ، فإذا رأيتم من يعمل ببعض هذه الأقوال المذكورة بالمنع مع كونه قد اتقى الله ما استطاع لم يحل لأحد الإنكار عليه اللهم إلا أن يتبين الحق فلا يحل لأحد أن يتركه لقول أحد من الناس . وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يختلفون فى بعض المسائل من غير نكير ما لم يتبين النص ، فيجب على المؤمن أن يحترم أهل العلم ويوقرهم ولو أخطئوا ، لكن لا يتخذهم أرباباً من دون الله . . .) .

- وفى الصفات يقول ابنه عبد الله :

(الجواب وبالله التوفيق عن آيات الصفات وأحاديثها التى اختلف فيها علماء الإسلام فنقول : الذى نعتقد وندين لله به هو مذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من الأئمة الأربعة وأصحابهم رضى الله عنهم أجمعين . وهو الإيمان بذلك والإقرار به وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل . . .) .

وفى جواب من يسأل عمن كان يستغيث بالمخلوق عند الشدائد بالنداء والدعاء ويستغيث ويتوسل ويتوجه بنبيه أو بالصالحين .

(والجواب : أما سؤال الميت والغائب نبياً كان أو غيره تفريج الكربات وإغاثة اللهفات والاستغاثة به فى الأمور المهمات فهو من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين . . . ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبى ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ولا كانوا يقصدون قبورهم للدعاء والصلاة عندها ، ولهذا ثبت فى الصحيح أن الناس لما قحطوا فى زمان عمر رضى الله عنه استسقى بالعباس وتوسل بدعائه وقال : اللهم ، إنا كنا نتوسل إليك إذا أجدبنا بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فيسقون . وكذلك معاوية رضى الله عنه لما استسقى لأهل الشام توسل بيزيد بن الأسود الجرشى ، فهذا الذى ذكره عمر رضى الله عنه توسل منهم بدعاء النبى وشفاعته فى حياته ؛ ولهذا توسل بعده بدعاء العباس وتوسل معاوية بدعاء يزيد بن الأسود (١) . .)

---

(١) وتستمر الفتوى .

- وهذه الأمور المبتدعة عند القبور أنواع : أبعدها عن الشرع من يسأل الميت كما يفعله كثير من الناس . وهؤلاء من جنس عبدة الأصنام . فكل من دعا نبياً أو ولياً أو صالحاً وجعل فيه نوعاً من الإلهية فقد تناولته هذه الآية . فإنها عامة فى كل من دعا من دون=

ويفتى أبناء الشيخ حسين وإبراهيم وعبد الله وعلى فرادى أو مجتمعين . من ذلك : قول حسين وعبد الله جواباً على استفتاء : (إن عقيدة الشيخ رحمه الله . . هى عقيدة سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان . . . وإذا تفقه الرجل فى مذهب من المذاهب الأربعة ثم رأى حديثاً يخالف مذهبه فاتبع الدليل وترك مذهبه – كان هذا مستحباً بل واجباً عليه إذا تبين له الدليل . ولا يكون مخالفاً لإمامه الذى اتبعه . فإن الأئمة كلهم متفقون على هذا الأصل .

. .وأما إذا لم يكن عند الرجل دليل فى المسألة يخالف القول الذى نص عليه العلماء أصحاب المذاهب فنرجو أنه يجوز له العمل به لأن رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا وإنما أخذوا الأدلة من أقوال الصحابة فمن بعدهم . ولكنّ لا ينبغى الجزم بأن هذا شرع الله وشرع رسوله . حتى يتبين الدليل الذى لا معارض له فى المسألة . وهذا عمل سلف الأمة وأئمتها قديماً وحديثاً والذى ننكره هو التعصب للمذاهب وترك اتباع الدليل(١) .

– الله مدعوا . . سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد فعل الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله إلا بالتوبة منه . . . وقد نص الأئمة أنه لا يجوز الاستغاثة بمخلوق . . . والغلو فى الصالحين هو من فعل المشركين كما حكاه الله تعالى عن قوم نوح . . .

فكل من غلا فى نبى أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من العبادة مثل أن يقول : يا سيدى فلان انصرنى أو أغثنى أو ارزقنى أو آجرنى أو أنا فى حسبك أو نحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه . . .

النوع الثانى من الأمور المبتدعة عند القبور أن يسأل الله تعالى به ، وهذا يفعله كثير من المتأخرين . وهو من البدع المحدثة فى الإسلام ، ولكن بعض العلماء يرخص فيه ، وبعضهم ينهى عنه ويكرهه . وليس هذا مثل النوع الذى قبله ؛ فإنه لا يتصل به الشرك الأكبر عند من كرهه ولا يسمى هذا استغاثة بالرسول ، وإنما هو سؤال به . والفرق بينه وبين الذى قبله فرق عظيم . فإن المستغيث بالشىء طالب منه سائل له والمتوسل به لا يدعو ولا يطلب منه ولا يسأل . وإنما يطلب به ، والتوسل إلى الله بغير نبينا ﷺ لا نعلم أحداً من السلف فعله : قال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة : (لا ينبغى لأحد أن يدعو الله إلا به وأكره أن يقول : (بمعقد العز من عرشك أو بحق خلقك) وهو قول أبى يوسف . قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا . وأكره بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام .

النوع الثالث من الأنواع المبتدعة عند القبور : أن يظن أن الدعاء عندها مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء فى المسجد ، فيقصد القبر لذلك ؛ فإن هذا من المنكرات إجماعاً . . .) .

(. . . . من مات على التوحيد وإقامة قواعد الإسلام الخمس وأصول الإيمان الستة ولكن كان يدعو وينادى ويتوسل فى الدعاء إذا دعا ربه ويتوجه بنبيه فى دعائه معتمداً على الحديثين اللذين ذكرناهما أو جهلا منه وغباوة – كيف حكمهم ؟

فالجواب أن يقال : . . . فى أزمنة الفترات وغلبة الجهل لا يكفر الشخص المعين بذلك حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ، ويبين له ويعرف أن هذا هو الشرك الأكبر الذى حرمه الله ورسوله . فإذا بلغته الحجة وتليت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ثم أصر على شركه – فهو كافر ؛ بخلاف من فعل ذلك جهالة منه ولم ينبه على ذلك . والجاهل فعله كفر . ولكن لا يحكم بكفره إلا بعد بلوغ الحجة إليه . وأما من مات وهو يفعل الشرك جهلاً لا عناداً فهذا نكل أمره إلى الله تعالى . . .) .

(١) وتستمر الفتوى .

لا يجوز تقبيل أيدى العلماء والسادة الأغنياء فى التحية ، ويتخذ ذلك عادة وسنة ، بل ذلك من البدع المحدثة . فيجب على المسلمين إزالتها والنهى عنها . وأما تقبيل اليد فى بعض الأحيان كتقبيل يد العالم لعلمه ، أو من كان من أهل بيت رسول الله ﷺ –

= لشرف نسبه - فلا بأس بذلك إذا لم يجعل عادة مستمرة كما صح في الحديث : أن أبا عبيدة قبل يد عمر . والفرق أن ما يفعل في بعض الأحيان يجوز ، وأما ما يجعل عادة وسنة فلا يجوز .

- إن الرجل لا يكون مسلماً إلا إذا عرف التوحيد ودان به ، فمن قال : لا أعادي المشركين ، أو عاداهم ولم يكفرهم ، أو قال : لا أتعرض لأهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر أو الشرك وعادوا دين الله ، أو قال : لا أتعرض للقباب - فهذا لا يكون مسلماً بل هو ممن قال الله فيهم في سورة النساء ١٥٠ - ١٥١ :

(ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً) . والله سبحانه وتعالى أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم فقال في المجادلة : ٢٢ : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) . . .

- إن قول (سيدي) ونحوه إن قصد به أن هذا الرجل معبوده الذي يدعوه عند الشدة لتفريج الأزمات وإغاثة اللهفات فإن ذلك شرك أكبر . وأما إن كان مراده غير ذلك كما يقول الاسم لشيخه (سيدي) أو يقال للأمير والشريف أو لمن كان من أهل بيت الرسول هذا سيد ، فهذا لا بأس به . ولكن لا يجعل عادة وسنة بحيث لا يتكلم إلا به . وثبت أن رسول الله قال : (أنا سيد ولد آدم) وقال في الحسن : (إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) .

- إن صاحب البردة ومن في كلامه الشرك والغلو في الذين ماتوا لا يحكم بكفرهم ، وإنما الواجب إنكار هذا الكلام وبيان أن من اعتقد هذا على الظاهر فهو مشرك كافر . وأما القائل فيرد أمره إلى الله سبحانه . ولا ينبغي التعرض للأموات ؛ لأنه لا يعلم هل تاب أو لا ؟ وأما شعر ابن الفارض فإنه كفر صريح ؛ لأنه شاعر الاتحادية الذين لا يفرقون بين العابد والمعبود والرب والمربوب ، بل يقول بوحدة الوجود وهو من طائفة ابن عربي الذين قال فيهم ابن المقرئ الشافعي : من شك في كفر طائفة ابن عربي فهو كافر والله أعلم .

إن القراءة على القبور وحمل المصاحف إلى القبور يفعله بعض الناس . يجلسون سبعة أيام ويسمونها الشدة ، وكذلك اجتماع الناس عند أهل الميت سبعة أيام ويقرءون فاتحة الكتاب ويرفعون أيديهم بالدعاء للميت ، فكل هذا من البدع والمنكرات المحدثة التي تجب إزالتها ، ولم تكن تفعل على عهد الرسول ﷺ ولا في عهد خلفائه الراشدين .